المحاضرة رقم 12: المخيال الشعبي الجزائري وصورة الزعيم والزعامة عبر التاريخ

تمهيد

تُعدّ دراسة المخيال الشعبي إحدى أهم المقاربات الأنثروبولوجية لفهم البُنى الرمزية التي تنظّم علاقة الجماعة بذاتها وبقادة المجتمع ورموزه. ويُقصد بالمخيال الشعبي مجموع التمثّلات والصور والقيم التي تُنتجها جماعة بشرية حول ذاتها والآخر والعالم، وتَظهر في شكل أساطير، أمثال، حكايات، سير شعبية، رموز، نكات، وممارسات اجتماعية. في هذا السياق، تكتسب **صورة الزعيم** مكانة مركزية داخل التنظيمات التقليدية والحديثة في الجزائر، إذ ظلّت صورة "الرجل القوي، الحامي، العادل، صاحب البركة، أو صاحب الشرعية الثورية" واحدة من أبرز الصور المتخيّلة التي تُنسج حول رموز السلطة.

يمتدّ تاريخ الزعامة في الجزائر من **الزعامات القبلية** مروراً بـ **الأولياء والصالحين وزعاماتهم الروحية** ثم **الزعامات المقاومة للاستعمار** وصولاً إلى **زعامة الحركة الوطنية، والثورة التحريرية، والرموز السياسية بعد الاستقلال**. وسنحاول من خلال هذه المحاضرة تحليل: **كيف تشكّلت صورة الزعيم في المخيال الشعبي الجزائري؟ وما هي التمثلات التي صاحبتها؟ وما التحولات التي مسّت هذا النموذج عبر القرون؟**

أولا: مفاهيم المخيال الشعبي والزعامة

1. مفهوم المخيال الشعبي

المخيال الشعبي هو بنية ذهنية جماعية تنتج صورًا وتمثّلات ورموزًا تؤطر رؤية المجتمع للعالم، ويعرفه "**جيلبير دوران**" باعتباره "منظومة من الأنماط الرمزية التي يستند إليها الأفراد في إدراك الواقع"، بينما يراه "**موريس غودولييه**" "كقوة تفسيريّة لا تقل أهمية عن التنظيم المادي".

أ- خصائصه:

- ❖ لا يُعبّر عن الواقع كما هو، بل كما **تتخيله** الجماعة.
- ❖ يمتزج فيه التاريخي بالأسطوري.
- ❖ يُنتج رموزًا لها وظيفة اجتماعية ونفسية.
- ❖ يوجّه السلوك السياسي والاجتماعي.

2. مفهوم الزعامة (Leadership) في الأنثروبولوجيا

اهتمت الأنثروبولوجيا الكلاسيكية بدراسة أشكال السلطة في المجتمعات التقليدية، ومن ذلك مفهوم الزعامة الذي يختلف عن السلطة السياسية الحديثة.

ولا يعد الزعيم في المجتمعات التقليدية "حاكماً" فحسب، بل:

- وسيط رمزي.
- ضامن للنظام الاجتماعي.
- صاحب شرعية تقليدية أو دينية أو كاريزمية (وفق ماكس فيبر).
- حامل لقيم الشجاعة، السخاء، النسب، القوة، والحنكة.

3. السياق الثقافي للزعامة في الجزائر

يتشكّل المخيال الجزائري من عناصر:

- البنى القبلية والعشائرية.
- الإسلام الشعبي والطرق الصوفية.
- المقاومة ضد الغزاة (الرومان، الوندال، الإسبان، الفرنسيون...).
- ثنائية "البطل/الشهيد" و"الخائن/الجبان."
- تمجيد القوة والدهاء والبركة.

ثانيا: الزعامة في المجتمع الجزائري قبل العهد العثماني

1. الزعامة القبلية البربرية

كانت القبيلة الوحدة السياسية الأساسية، وكان الزعيم يُسمّى "الأمين" أو "شيخ القبيلة."

أ- خصائصه:

- يُختار بناءً على النسب والسنّ والخبرة.
- يُمكن عزله إذا أخلّ بالمهام.
- سلطته جماعية لا مطلقة.

ب- صفات الزعيم في المخيال القبلي القديم

- ❖ الشجاعة.
- ❖ الفصاحة.
- ❖ الحكمة.
- ❖ الكرم.
- ❖ القدرة على حل النزاعات.
- ❖ الدفاع عن الشرف والدم.

2. الزعامة الروحية عند الأمازيغ

ارتبطت ببعض الشخصيات التي تمتلك "بركة" أو سلطة رمزية (الكاهنة مثلًا).

قدرة الزعيم الروحي:

- ❖ التنبؤ.
- ❖ قيادة الحرب.
- ❖ حماية الأرض عبر "قوة رمزية" تُنسب إليه.

هذه النماذج ستتكرر لاحقاً في صورة "الولي الصالح."

ثانيا: الزعامة في العهد العثماني(1516-1830)

1. دايات الجزائر وصورة "الرجل القوي"

ظهر نموذج الزعيم العسكري المتحكّم في السلاح والبحر.

في المخيال الشعبي:

- ❖ "البحر مصدر القوة."
- ❖ "الداي لا يعصى."
- ❖ "السلطة الحازمة أفضل من الفوضى."

ارتبطت الزعامة بالشدة، مما رسّخ صورة الزعيم القوي القادر على فرض النظام.

2. زعامة الزوايا والطرق الصوفية

مثال: الزاوية الرحمانية، الزاوية التيجانية، الزاوية القادرية...

امتزجت الزعامة الروحية بالدور السياسي:

- ❖ قيادة القبائل.
- ❖ نشر التعليم.
- ❖ الوساطة بين السكان والسلطة.
- ❖ حماية الفقراء.

ووظيفة الزعيم الروحي في مخيال المجتمع تكمن في كونه:

- ❖ صاحب "البركة."
- ❖ مجيب الدعوات.
- ❖ حامي الأرض والناس.
- ❖ وسيط بين السماء والأرض.

ثالثا: صورة الزعيم في مرحلة المقاومة الشعبية ضد الاستعمار(1830-1912)

تمثل هذه الحقبة مرحلة مفصلية في إعادة إنتاج صورة الزعيم في المخيال الشعبي.

1. الأمير عبد القادر: "الزعيم المقدّس والمجاهد"

يُعدّ النموذج الأكثر رسوخاً في الذاكرة الجزائرية.

تمثلاته في المخيال الشعبي:

- ❖ فارس نبيل.
- ❖ صاحب بركة نسب شريف.
- ❖ قائد سياسي وديني.
- ❖ حكيم ودبلوماسي.
- ❖ قائد المنفى الشريف.

2. الزعامة الشعبية المحلية

أمثلة: لالة فاطمة نسومر، أحمد باي، بوبغلة، بوعمامة، الحاج المقراني...

أ- خصائص الزعيم المقاوم في المخيال الشعبي:

- القدرة على جمع القبائل.
- التضحية بالنفس.
- امتلاك "سرّ" أو "قوة خفية."
- عدالة القضية.

ب- المرويات الشفوية:

- الأشعار الشعبية.
- القصائد الملحمية.
- الحكايات عن "البطل المنقذ."

هذه المواد ساهمت في تشكيل نموذج "الزعيم المجاهد."

رابعا: صورة الزعيم في المخيال الجزائري خلال الحركة الوطنية والثورة(1912-1962)

1. بروز "الزعيم المثقف"

ظهور قادة الأحزاب (مصالي الحاج خاصة) غيّر شكل الزعامة:

- خطاب جماهيري.
- رمزية سياسية وليس دينية فقط.
- زعيم مرتبط بحركة جماهيرية كبرى.

مثال: مصالي الحاج:

تحول في المخيال إلى "أب الحركة الوطنية." محاطا بتمثلات شعبية: الرجل الملهم، صاحب القضية، رمز الهوية الجزائرية.

2. زعامة الثورة التحريرية(1954-1962)

الزعيم يصبح "مجموعة زعماء:" بن مهيدي، ديدوش مراد، عبان رمضان، كريم بلقاسم...

أ- صورة المجاهد الشهيد

- الشجاعة.
- التضحية.
- الجماعية ضد الفردية.
- رفض الزعامة الفردية لصالح "جيش الشعب."

يظهر نموذج "الزعيم الأخلاقي"، وليس فقط العسكري.

خامسا: الزعامة في الجزائر بعد الاستقلال

1. دولة ما بعد الثورة وصورة الرئيس

ظهرت الدولة المركزية التي تحمل شرعية ثورية.

أ- صفات الزعيم في المخيال:

- "الوريث الشرعي للثورة."
- "الأب القائد."
- "حامي الاستقلال."

ب- المدرسة والإعلام وإعادة تشكيل صورة الزعيم:

استُثمرت سير الشهداء والزعماء في بناء ذاكرة وطنية، فأصبحت صورة الزعيم مرتبطة:

- بالتضحية.
- النضال.
- الوحدة الوطنية.

2. التحولات في العقود الأخيرة

مع تعدد وسائل الإعلام وارتفاع الوعي:

- تقلّصت صورة الزعيم الأسطوري.
- بروز نقد السلطة.
- بروز زعامات جديدة (رياضية، شبابية، دينية إعلامية).

سادسا: تحليل أنثروبولوجي لصورة الزعيم في المخيال الشعبي الجزائري

1. أهم الأنماط الرمزية السائدة

- **الزعيم البطل** :المقاوم، المجاهد.
- **الزعيم الحكيم** :المتوسط في السلم.
- **الزعيم العادل** :نموذج الأمير عبد القادر.
- **الزعيم الروحي** :صاحب البركة.
- **الزعيم الأب/الحامي** :رمز الدولة الحديثة.

2. وظائف صورة الزعيم في المجتمع

- تحقيق التماسك الاجتماعي.
- منح الجماعة شعور الأمن.
- تكوين الهوية المشتركة.
- إضفاء الشرعية على الحكم.
- ضمان الاستمرارية التاريخية.

3. التحولات الراهنة

- انكسار بعض الرموز.
- بروز مفهوم "القائد الجماعي."
- حضور قوي للإعلام الرقمي في تشكيل الصورة.

سابعا: نماذج من المخيال الشعبي (أمثلة ميدانية)

1. الأمثال الشعبية

- "الراجل لا يُغلب" ← تمجيد القائد القوي.
- "شيخ القوم خادمُهم" ← الزعيم العادل.
- "قدّام الزعيم تُرفع الرايات" ← شرعية الكاريزما.

2. السير والقصص المتداولة

- ❖ حكايات عن الأمير عبد القادر كمقاتل خارق.
- ❖ قصص "بركة بوعمامة."
- ❖ روايات عن دهاء أحمد باي.
- ❖ أساطير عن "جيش التحرير الذي لا يُهزم."

3. الأغاني الشعبية

- ❖ أغاني الشاوية عن لالة فاطمة.
- ❖ أغاني المدّاحين عن الأمير.
- ❖ أغاني الثورة (أناشيد جيش التحرير).

خلاصة

إنّ صورة الزعيم في المخيال الشعبي الجزائري ليست معطى ثابتًا، بل بناءٌ تاريخي وثقافي يتغير مع تحولات المجتمع. فمن الزعيم القبلي صاحب الحكمة، إلى الولي صاحب البركة، إلى المقاوم البطل، إلى الزعيم السياسي – تتجدد الرمزية وفق السياق.

لكن تبقى **ثلاثة عناصر ثابتة** في المخيال الجزائري:

- ❖ الزعيم يجب أن يكون **شجاعًا**.
- ❖ الزعيم يجب أن يكون **عادلاً**.
- ❖ الزعيم يجب أن يكون **حاميًا للجماعة**.

هذا النموذج يستمر في تشكيل علاقة المجتمع بالسلطة وبالرموز، ويمنح الباحث الأنثروبولوجي مفتاحاً لفهم عمق الشخصية الجزائرية وتمثلاتها للقيادة والسلطة.